إيان آنـگـاس*: خُرافة مأسـاة المشاعات **

ترجمة: مصباح كمال***

هل سيتم دائمًا إساءة استخدام الموارد المشتركة والإفراط في استخدامها؟ وهل أن الملكية المجتمعية للأراضي والغابات ومصائد الأسماك هي طريق مضمون إلى كارثة إيكولوجية؟ هل الخصخصة هي السبيل الوحيد لحماية البيئة وإنهاء الفقر في العالم الثالث؟ سوف يجيب معظم الاقتصاديين ومخططي التنمية بـ "نعم" — وللدليل على ذلك سوف يشيرون إلى المقالة الأكثر تأثيراً على الإطلاق التي كتبت حول هذه الأسئلة المهمة.

منذ نشرها في مجلة العلوم *Science* في ديسمبر 1968، تم ضم مقالة "مأساة المشاعات" ضمن 111 كتابًا على الأقل، مما يجعلها واحدة من أكثر المقالات التي أعيد طباعتها على الإطلاق في أي مجلة علمية. وهي أيضًا واحدة من أكثر الكلمات اقتباسًا: فقد وجد في محرك البحث Google مؤخرًا "حوالي 302000" نتيجة لعبارة "مأساة المشاعات."

لقد كانت المقالة ولمدة 40 عامًا، على حد تعبير ورقة نقاش صادرة من البنك الدولي، "النموذج السائد الذي يقيم من خلاله علماء الاجتماع قضايا الموارد الطبيعية." (Bromley and Cernea 1989: 6). واستُخدمت مراراً وتكراراً لتبرير سرقة أراضي السكان الأصليين، وخصخصة الرعاية الصحية وغيرها من

الخدمات الاجتماعية، ومنح الشركات "تصاريح قابلة للتداول"[1] "tradable permits" لتلويث الهواء والماء، وغير ذلك الكثير.

عالم الأنثروبولوجيا الشهير الدكتور ج. ن. أبيل Dr. G.N. Appell (1995: 34-5) كتب أن المقالة "تم تبنيها كنص مقدس من قبل العلماء والمهنيين الذين يعملون في تصميم [خطط] المستقبل للآخرين وفرض عقلانيتهم الاقتصادية والبيئية على الأنظمة الاجتماعية الأخرى التي ليس لديهم فهم ومعرفة كاملة لها."

مثل معظم النصوص المقدسة، يتم الاستشهاد بمقالة "مأساة العموم" أكثر من قراءتها. وكما سنرى، على الرغم من أن عنوانها يبدو موثوقًا وعلميًا، إلا أنه افتقر للعلم كثيرًا.

غاريت هاردن يُولّد خُرافة

كان كاتب "مأساة العموم" غاريت هاردن Garrett Hardin، الأستاذ بجامعة كاليفورنيا والذي كان حتى ذلك الحين معروفًا بأنه مؤلف كتاب لعلم الأحياء والذي دافع عن "السيطرة على تكاثر" الأشخاص "المعيبين وراثيًا" (Hardin 1966: 707). في مقالته عام 1968، قال إن المجتمعات التي تتقاسم الموارد تمهد حتماً الطريق لتدميرها؛ فبدلاً من الثروة للجميع، لن تظلّ ثروة لأحد.

لقد بنى هادن حجته على قصة عن المشاعات في ريف إنجلترا.

(كان مصطلح "المشاعات" "commons" يستخدم في إنجلترا للإشارة إلى المراعي والحقول والغابات وأنظمة الري وغيرها من الموارد المشتركة التي كانت

[1] تصاريح التلوث القابلة للتداول tradable pollution permits هي حصص منظمة regulated تهدف إلى الحد من التلوث، تسمح للشركات بإنتاج الحد الأقصى من انبعاثات التلوث كما تقررها الحكومات. إذا كان حجم التلوث فوق ما هو مسموح به في هذه الحصص، تتعرض الشركات المنتجة للانبعاثات إلى غرامة. وإذا وجدت الشركات أنها تنتج تلوثًا أقل من الحصص المخصص لها، فيمكنها بيع ما يفضل من حصتها المقررة في التصاريح لشركة أخرى تحتاج إلى المزيد من التصاريح لمواصلة أنشطتها. (المترجم)

موجودة لفترة طويلة في العديد من المناطق الريفية وامتدت حتى من القرن التاسع عشر. وكانت هناك ترتيبات زراعية جماعية مماثلة في معظم أنحاء أوروبا، ولا تزال موجودة حتى اليوم بأشكال مختلفة في جميع أنحاء العالم، وخاصة في مجتمعات السكان الأصليين).

كتب هاردن: "تخيل مرعى مفتوحًا للجميع." إن الراعي الذي يريد توسيع قطيعه الشخصي سوف يحسب أن تكلفة الرعي الإضافي (انخفاض [كمية] الغذاء [العلف] لجميع الحيوانات، واستنزاف التربة السريع) سيتم تقسيمها بين الجميع، لكنه وحده سيحصل على فائدة وجود المزيد من الماشية للبيع.

ومن المحتم أن "يستنتج الراعي العقلاني أن المسار المعقول الوحيد الذي يجب عليه اتباعه هو إضافة حيوان آخر إلى قطيعه." لكن كل "راعٍ عقلاني" سيفعل الشيء نفسه، لذلك سرعان ما تصبح المشاعات مكتظة وترعى بشكل مفرط إلى درجة أنها لا تستطيع إعالة أي حيوانات على الإطلاق.

استخدم هاردن كلمة "مأساة" "tragedy" كما فعل أرسطو، للإشارة إلى النتيجة الدرامية التي هي النتيجة الحتمية ولكن غير المخطط لها لأفعال الشخصية الدرامية. لقد وصف تدمير المشاعات من خلال الإفراط في الاستخدام بالمأساة، ليس لأنه أمر محزن، ولكن لأنه نتيجة حتمية للاستخدام المشترك للمراعي. "الحرية في المشاعات تجلب الخراب للجميع."

أين الدليل؟

وبالنظر إلى التأثير اللاحق لمقالة هاردن، فمن المثير للصدمة أن ندرك أنه لم يقدم أي دليل على الإطلاق لدعم استنتاجاته الشاملة. وادعى أن "المأساة" كانت حتمية، لكنه لم يبين حدوثها ولو مرة واحدة.

لقد تجاهل هاردن ببساطة ما يحدث بالفعل في المشاعات الحقيقية: **التنظيم الذاتي من قبل المجتمعات المعنية**. وقد وجاء وصف لإحداها قبل سنوات عديدة في

عرض فريدريك إنجلز لـ "المارك"،[2] وهو الشكل الذي اتخذته المجتمعات القائمة على المشاعات في أجزاء من ألمانيا ما قبل الرأسمالية:

> كان استخدام الأراضي الصالحة للزراعة والمروج تحت إشراف وتوجيه الجماعة.
> . . .
>
> وكما أن نصيب كل عضو في القدر الذي تم توزيعه من المارك كان متساويًا في الحجم، كذلك كان نصيبه أيضًا في استخدام "المارك المشترك." وكانت طبيعة هذا الاستخدام تحدد من قبل أفراد الجماعة ككل. . . .
>
> وفي أوقات محددة، وإذا لزم الأمر، بشكل متكرر، كانوا يجتمعون في الهواء الطلق لمناقشة شؤون المارك mark والحكم على مخالفات الأنظمة والنزاعات المتعلقة بالمارك. (Engels 1892)

وقد أكد المؤرخون وغيرهم من العلماء على نطاق واسع وصف إنجلز للإدارة الجماعية للموارد المشتركة. فقد جاء في ختام ملخص لبحوث حديثة ما يلي:

> ما كان موجودًا في الواقع لم يكن "مأساة للمشاعات" بل كان انتصارًا: لمئات السنين — وربما الآلاف، على الرغم من عدم وجود سجلات مكتوبة لإثباته لفترة أطول — حيث كانت الأراضي تدار بنجاح من خلال الجماعات communities. (Cox 1985: 60)

كان جزء من عملية التنظيم الذاتي self-regulation معروفًا في إنجلترا باسم "التقتير" "stinting" — وضع حدود لعدد الأبقار والخنازير والأغنام وغيرها من الماشية التي يمكن لكل شخص من عامة الناس رعيها في المرعى المشاع. وكان مثل هذه "التقتير" يحمي الأرض من الإفراط في الاستخدام (وهو المفهوم الذي فهمه

[2] نظام اجتماعي يقوم على الحيازة والزراعة المشتركة للأرض (المترجم). يمكن قراءة ما كتبه إنجلز بالنقر على هذا الرابط: https://www.marxists.org/archive/marx/works/1892/12/mark.htm أو في كتابه:
Frederick Engels, *The Peasant War in Germany* (Moscow: Progress Publishers, fifth printing 1977), Appendix I, pp 135-153.

المزارعون ذوو الخبرة قبل وقت طويل من وصول هاردن) وسمحت للمجتمع بتخصيص الموارد وفقًا لمفاهيم المجتمع الخاصة بالإنصاف.

الحالات المهمة الوحيدة من الإفراط [في عدد الماشية] التي اكتشفها الخبير الحديث الرائد في المشاعات الإنجليزية تتعلق بملاك الأراضي الأثرياء الذين وضعوا عمدًا عددًا كبيرًا جدًا من الحيوانات في المراعي من أجل إضعاف موقف جيرانهم الأكثر فقراً في النزاعات حول تسييج enclosure (خصخصة) الأراضي المشاعة (Neeson 1993: 156)

افترض هاردن أن المزارعين الفلاحين غير قادرين على تغيير سلوكهم في مواجهة كارثة معينة. ولكن في العالم الحقيقي، أنشأ صغار المزارعين وصيادي الأسماك وغيرهم مؤسساتهم وقواعدهم الخاصة للحفاظ على الموارد وضمان بقاء مجتمع المشاعات على قيد الحياة خلال السنوات الجيدة والسيئة.

لماذا يريد الراعي المزيد؟

تبدأ حجة هاردن بتأكيد غير مُثبت على أن الرعاة يريدون دائمًا توسيع قطعانهم: "من المتوقع أن يحاول كل راعٍ الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الماشية في المشاعات ... ككائن عقلاني، يسعى كل راع إلى تعظيم مكاسبه."

باختصار، كان استنتاج هاردن محددًا مسبقًا من خلال افتراضاته. ذلك أنه "من المتوقع" أن يحاول كل راعي تعظيم حجم قطيعه — وكل واحد يفعل ذلك بالضبط. إنها حجة دائرية circular argument لا تثبت شيئًا.

افترض هاردن أن الطبيعة البشرية أنانية وغير متغيرة، وأن المجتمع مجرد تجمع لأفراد مهتمين بذواتهم ولا يهتمون بتأثير أفعالهم على المجتمع. وتشكل الفكرة نفسها، صراحةً أو ضمنًا، عنصرًا أساسيًا في النظرية الاقتصادية السائدة (أي المؤيدة للرأسمالية).

وتشير كل الأدلة (ناهيك عن المنطق السليم) إلى أن هذا أمر سخيف: فالناس كائنات اجتماعية، والمجتمع أكبر بكثير من المجموع الحسابي لأعضائه. وحتى المجتمع الرأسمالي، الذي يكافئ السلوك الأكثر مناهضة للمجتمع، لم يسحق التعاون والتضامن الإنساني. إن حقيقة أن "الرعاة العقلانيين" لم يفرطوا في الرعي على مدى قرون من الزمن تدحض افتراضات هاردن الأساسية — لكن هذا لم يمنعه هو أو أتباعه من إنشاء قلاع للسياسيات على أسس من الرمال.

وحتى لو أراد الراعي أن يتصرف كما وصف هاردن، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا توافرت شروط معينة.

يجب أن يكون هناك سوق للماشية، ويجب عليه التركيز على الإنتاج لهذا السوق، وليس للاستهلاك المحلي. ويجب أن يكون لديه رأس مال كافٍ لشراء الماشية الإضافية والأعلاف التي تحتاجها الماشية في الشتاء. ولابد أن يكون قادراً على استئجار عمال لرعاية القطيع الأكبر حجماً، وبناء حظائر أكبر، وما إلى ذلك. ولا بد أن تفوق رغبته في الربح مصلحته في بقاء مجتمعه على المدى الطويل.

باختصار، لم يصف هاردن سلوك الرعاة في المجتمعات الزراعية ما قبل الرأسمالية — بل وصف **سلوك الرأسماليين العاملين في الاقتصاد الرأسمالي**. إن الطبيعة البشرية الكونية التي ادعى أنها ستدمر دائمًا الموارد المشتركة هي في الواقع سلوك الشركات القائم على الربح "النمو أو الموت."

هل سيكون أداء الملكية الخاصة أفضل؟

ويقودنا هذا إلى خلل قاتل آخر في حجة هاردن: فبالإضافة إلى عدم تقديم أي دليل على أن الحفاظ على المشاعات من شأنه أن يؤدي حتماً إلى تدمير البيئة، فإنه لم يقدم أي مبرر لرأيه بأن الخصخصة من شأنها أن تنقذ البيئة. مرة أخرى، قدَّم ببساطة تحيزاته الخاصة على أنها حقيقة:

> يجب علينا أن نعترف بأن نظامنا القانوني للملكية الخاصة بالإضافة إلى نظام الميراث غير عادل — ولكننا نتحمله لأننا غير مقتنعين، في الوقت الحالي، بأن أي

> شخص قد اخترع نظامًا أفضل. إن بديل المشاعات أمر مرعب للغاية بحيث لا يمكن التفكير فيه. فالظلم أفضل من الخراب الشامل.

والمغزى من ذلك هو أن أصحاب القطاع الخاص سوف يقومون بعمل أفضل في رعاية البيئة لأنهم يريدون الحفاظ على قيمة أصولهم. في الواقع، قام الباحثون والناشطون بتوثيق عشرات الحالات التي أدى فيها تقسيم وخصخصة الأراضي المدارة بشكل جماعي إلى نتائج كارثية. وقد أدت خصخصة المشاعات مرارًا وتكرارًا إلى إزالة الغابات، وتآكل التربة واستنزافها، والإفراط في استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية، وتدمير النظم الإيكولوجية ecosystems

وكما كتب كارل ماركس، تتطلب الطبيعة دورات طويلة من الولادة والتطور والتجديد، لكن الرأسمالية تتطلب عوائد قصيرة الأجل.

> إن روح الإنتاج الرأسمالي بأكمله، الموجه نحو تحقيق الأرباح النقدية المباشرة، يتعارض مع الزراعة، التي يجب أن تهتم بسلسلة كاملة من ظروف الحياة الدائمة التي تتطلبها سلسلة الأجيال البشرية. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك الغابات، التي نادرًا ما تتم إدارتها بطريقة تتوافق إلى حد ما مع مصالح المجتمع ككل. . . . (Marx 1998: 611n)

وخلافاً لادعاءات هاردن، فإن المجتمع الذي يتقاسم الحقول والغابات لديه حافز قوي لحمايتها بأقصى ما يستطيع، حتى لو كان ذلك يعني عدم تعظيم الإنتاج الحالي، لأن هذه الموارد سوف تشكل ضرورة أساسية لبقاء المجتمع لقرون قادمة. أما المالكون الرأسماليون فلهم الحافز المعاكس، لأنهم لن يتمكنوا من البقاء في عالم الأعمال إذا لم يعملوا على تعظيم أرباحهم على المدى القصير. فإذا وعَدَ الإيثانول بأرباح أكبر وأسرع من تلك التي حققتها الغابات المطيرة التي يعود تاريخها إلى قرون مضت، عندها ستسقط الأشجار.

وقد بلغ هذا التركيز على المكاسب القصيرة الأجل نقطة من السخافة المروعة في الكتب الأكثر مبيعًا التي ألفها بيورن لومبورج، ووليام نوردهاوس Bjorn Lomborg, William Nordhaus، وآخرون، الذين يزعمون أنه من غير

العقلاني إنفاق الأموال لوقف انبعاثات الغازات الدفيئة اليوم، لأن المردود هو بعيدًا جدًا في المستقبل. ويقولون إن الاستثمارات الأخرى ستنتج عوائد أفضل بكثير وبسرعة أكبر.

إن إدارة المجتمع ليست طريقة معصومة من الخطأ لحماية الموارد المشتركة: فقد أساءت بعض المجتمعات إدارة الموارد المشاعة، وربما تم الإفراط في استخدام بعض المشاعات حتى الانقراض. ولكن لا يوجد مجتمع قائم على المشاعات يتمتع بالدافع المتأصل في الرأسمالية لوضع الأرباح الحالية قبل رفاهية أجيال المستقبل.

خُرافة مفيدة سياسيًا

إن الأمر المروع حقًا في "مأساة المشاعات" ليس افتقارها إلى الأدلة أو المنطق — فالمقالات سيئة البحث والمحاجة ليست غير معروفة في المجلات الأكاديمية. الأمر الصادم هو حقيقة أن هذا الهراء الرجعي قد تم الترحيب به باعتباره تحليلًا رائعًا لأسباب المعاناة الإنسانية والدمار البيئي، وتم اعتماده كأساس للسياسة الاجتماعية من قبل خبراء مزعومين بدءًا من الاقتصاديين وعلماء البيئة إلى الحكومات ووكالات الأمم المتحدة.

وعلى الرغم من دحضها مرارًا وتكرارًا، فإنها لا تزال تستخدم اليوم لدعم الملكية الخاصة والأسواق غير الخاضعة للرقابة باعتبارها طرقًا مؤكدة لتحقيق النمو الاقتصادي.

يعكس نجاح حجة هاردن فائدتها كتفسير علمي زائف للفقر العالمي والتفاوت بين الناس، وهو تفسير لا يشكك في النظام الاجتماعي والسياسي السائد. فهو يؤكد تحيزات من هم في السلطة: فالأخطاء المنطقية والواقعية لا شيء مقارنة بالادعاء الجذاب للغاية (في نظر الأغنياء) بأن الفقراء مسؤولون عن فقرهم. إن حقيقة أن حجة هاردن تلوم الفقراء أيضًا على التدمير الإيكولوجي هي إضافة لهذا النهج.

تم استخدام مقالة هاردن على نطاق واسع كرد فعل أيديولوجي على الحركات المناهضة للإمبريالية في العالم الثالث والسخط بين السكان الأصليين وغيرهم من الشعوب المضطهدة في كل مكان في العالم.

> لقد تبنت قوى الرجعية الليبرالية الجديدة في السبعينيات حكاية هاردن الخُرافية، وأصبحت مقالته الأساس "العلمي" لسياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أي تسييج المشاعات وخصخصة الممتلكات العامة. . . . والرسالة واضحة: لا ينبغي لنا أبداً أن نتعامل مع الأرض باعتبارها "خزانة مشتركة." يجب أن نكون قساة وجشعين وإلا فإننا سوف نهلك. (Boal 2007)

في كندا، تستخدم جماعات الضغط المحافظة الحجج المستمدة من مقالة هاردن السياسية لتبربر الفقر في محميات الأمم الأولى First Nations' reserves وللمطالبة بمزيد من تفكيك مجتمعات السكان الأصليين. فقد حثّت دراسة نشرها معهد فريزر المؤثر على خصخصة الأراضي المحمية:

> هذه المساحات الكبيرة من الأراضي، وما فيها من موارد طبيعية، لن تحقق أقصى فائدة لسكان كندا الأصليين طالما أنها مملوكة كملكية جماعية خاضعة للإدارة السياسية ..... الملكية الجماعية هي طريق الفقر، والملكية الخاصة هي طريق الرخاء. (Fraser 2002: 16-17)

وهذا ليس مجرد موقف يميني. فقد أعلنت الحكومة الفيدرالية الكندية، التي رفضت التوقيع على إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية United Nations Declaration on the Rights of Indigenous Peoples، في عام 2007 أنها "ستعمل على تطوير أساليب لدعم تنمية الملكية الفردية في المحميات [محميات الهنود الحمر]" وأنشأت صندوقًا بقيمة 300 مليون دولار للقيام بذلك.

في عالم هاردن، فإن الفقر لا علاقة له بقرون من العنصرية والاستعمار والاستغلال: فالفقر أمر لا مفر منه وطبيعي في كل زمان ومكان، وهو نتاج الطبيعة

البشرية الثابتة. ويجلب الفقراء ذلك على أنفسهم من خلال إنجاب عدد كبير جدًا من الأطفال والتشبث بالجماعية collectivism المدمرة للذات.

إن مأساة المشاعات عبارة عن خرافة سياسية مفيدة — وهي طريقة تبدو علمية للقول بأنه لا يوجد بديل للنظام العالمي المهيمن.

وبعد تجريده من الإسهاب الزائد، أكدت مقالة هاردن، دون أي دليل، على أن البشر أسرى عاجزون للبيولوجيا والسوق. وما لم يتم ضبطنا، فسوف ندمر حتمًا مجتمعاتنا وبيئتنا مقابل بضعة قروش إضافية من الربح. لا يوجد شيء يمكننا القيام به لجعل العالم أفضل أو أكثر عدلاً.

في عام 1844، وصف فريدريك إنجلز حجة مماثلة بأنها "تجديف مثير للاشمئزاز ضد الإنسان والطبيعة." تنطبق هذه الكلمات بكل قوة على خُرافة مأساة المشاعات.

المراجع المذكورة في النص

Appell, G. N. 1993. "Hardin's Myth of the Commons: The Tragedy of Conceptual Confusions."

Boal, Iain. 2007. "Interview: Specters of Malthus: Scarcity, Poverty, Apocalypse." *CounterPunch*, September 11, 2007.

Bromley, Daniel W. and Cernea Michael M. 1989. "The Management of Common Property Natural Resources: Some Conceptual and Operational Fallacies." *World Bank Discussion Paper*.

Cox, Susan Jane Buck. 1985. "No Tragedy on the Commons." *Environmental Ethics 7*.

Engels, Friedrich. 1892. "The Mark."

Engels, Friedrich. 1844. *Outlines of a Critique of Political Economy*.

Fraser Institute. 2002. *Individual Property Rights on Canadian Indian Reserves*.

Hardin, Garrett. 1966. *Biology: Its Principles and Implications*. Second edition. San Francisco. W.H. Freeman & Co.

Hardin, Garrett. 1968. "The Tragedy of the Commons."

Marx, Karl. [1867] 1998. *Marx Engels Collected Works Vol. 37 (Capital, Vol. 3)*. New York: International Publishers

Neeson, J.M. 1993. *Commoners: Common Right, Enclosure and Social Change in England, 1700-1820*. Cambridge University Press.

(*) إيان أنـگـاس (من مواليد 1945)، ناشط كندي فـي مجـال الاشـتراكية البيئيـة، محـرر مجلـة المناخ والرأسمالية، وعضو تنفيذي مؤسس في الشبكة الاشتراكية البيئيـة العالميـة. للمزيـد مـن المعلومات راجع: (https://en.wikipedia.org/wiki/Ian_Angus_(activist

(**) يمكن قراءة النص الإنجليزي للمقال بالنقر على الرابط التالي:
Ian Angus, 'The Myth of the Tragedy of the Commons'
http://mrzine.monthlyreview.org/2008/angus250808.html

(***) مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصـاديين العـراقيين. يسـمح بإعـادة النشـر بشـرط الإشـارة إلـى المصدر. 24. كانون الأول 2023
http://iraqieconomists.net/ar/